ستيفانو كياريني

ستيفانو

طلال سلمان*

صعبةٌ هي الكتابةُ بصيغة الغائب عن ستيفانو كياريني، الرجل الذي تماهى مع إيمانه بالقضية الحقّ حتى صار فيها ومنها، لا ينفصلُ عنها، برغم البعد... بل هو قد أضاف إليها ملامحَه، فاستقرّ فيها، وصرْنا نستذكره معها، ونستحضرُها، كلّما ذكرناه.

لَكَمْ هي جليلة القداسة هذه، المبارَكة، فلسطين، تتخطّى حواجزَ القومية والدين واللغة، لتَفْرضَ نفسَها هويةً لأيِّ مناضلٍ من أجل كرامة الإنسان وحقّه في وطنه!

على أنّنا نَحْفظ لستيفانو كياريني ميزةً إضافيةً: فلقد أَسْهم، مع رفاقه من المناضلين الأوروبيين الذين كانوا يجيئون إلينا صيفَ كلِّ عام، في إحياء ذكرى الشهداء الذين اغتيلوا في مذبحة جماعية؛ وهم المطرودون بالقوة من وطنهم، والمرميّون في مخيّمات اللجوء في ديارٍ غيرِ ديارهم، والمقتولون بلا ذَنْبٍ غير انتمائهم إلى الأرض المقدّسة فلسطين، التي رَفَضوا أن يتخلّوا عن هويتها برغم كلّ المغريات والعروض التي قُدِّمتْ إليهم تحت عنوان: إنسَ فلسطينَ تكُنْ لك الحياةُ في أيّ جنة أميركية أو أوروبية أو عربية... أمّا اذا تمسّكتَ بالأرض التي أُخذتْ منكَ بالسلاح وظللتَ تَحْلم بالعودة إليها، فلسوف تُقتل وتُدفن داخل حلمك، الذي قد يتّخذ صورةَ المقبرة الجماعية كما حصل مع أكثر من ألف وخمسمائة امرأة وطفل وعجوز فلسطيني في مخيّميْ صبرا وشاتيلا، ومعهم عشراتٌ من اللبنانيين وعشراتٌ من حملة جنسيات أخرى، ولكنّهم في البؤس شركاء، وإنْ كان بعضُهم محرومين من وطنهم والبعضُ الآخرُ محرومين في وطنهم.

وأَشْهد أنّنا كنّا قد بدأنا ننسى أو نتناسى شهداءَ صبرا وشاتيلا، لكثرةِ ما عشناه في لبنان، وعاشه الفلسطينيون داخل فلسطين وخارجها، من مآسٍ عبر الاجتياحات والاعتداءات الإسرائيلية المتكررة، والتي كان يطارد فيها جيشُ الدفاع الإسرائيلي الأحلامَ والعصافيرَ والفراشاتِ وابتساماتِ الأطفال وترانيمَ الأمّهات وهنّ يهدهدن بها أطفالَهُنّ لكي يناموا. وأَشْهد أنّنا كنّا نخاف من إثارة المواجع إذا ما نحن استذكرْنا صبرا وشاتيلا، إذ نَفَّذَ الحَوَلُ السياسيُّ لبعض القوى السياسية اللبنانية الغرضَ الإسرائيليَّ، تحت وهم أنّ تلك هي الطريقُ الأقصرُ إلى السلطة. فكان أن أفاد السفّاحُ آرييل شارون من هؤلاء الذين باتوا شركاءه كأدواتٍ في تنفيذ الجريمة، ليغسلَ يديْه منها، ويتّهمَ بها الأدوات، في حين أنّ التخطيطَ والتوقيتَ والتعتيمَ وتحضيرَ المسرح للجريمة كانت كلُّها بحت إسرائيلية.

لكنّ ستيفانو كياريني، المعزَّزَ بتجربةٍ نضاليةٍ ممتازةٍ في صفوف الحزب الشيوعي الإيطالي، والذي اتّخذ من الصحافة مهنةً لإيصال الحقيقة إلى الناس كجزءٍ من تعبئتهم من أجل نصرة الحقّ ومقاومة الطغيان والغلط والاحتلال، لم ينسَ ولا ارتضى لنا أن نرتكب خطيئةَ النسيان.

ولن أنسى أبدًا ذلك الوجعَ المشعَّ بابتسامةِ الودّ وهو يدخل عليّ في **السفير**، فأَعْرف أنّه حان الموعدُ الذي صار مرتبطًا به...

في المرة الأولى، وبعدما استمعتُ إليه بصوته الهادئ يبلغني القرارَ بقدوم مجموعات من المناضلين في منتصف أيلول لإحياء ذكرى شهداء صبرا وشاتيلا، قلتُ في نفسي: «لعلّها حركةُ

* - ناشر جريدة **السفير** (لبنان)، وأحدُ أعزّ أصدقاء ستيفانو كياريني.

مؤتمر صحافي صيف ٢٠٠٤ لرئيس الوفد الإيطالي المشارك لإحياء مجزرة مخيميْ صبرا وشاتيلا ١٩٨٢ ستيفانو كياريني، بحضور نقيب الصحافة محمد البعلبكي، وناشر صحيفة **السفير** طلال سلمان، وممثّلةٍ عن حزب الخضر الإيطالي.

تضامُنٍ لها أهدافُها المحليةُ في إيطاليا.» ثم انتبهتُ إلى أنّني إنّما أرتكب خطأً فظيعًا: فمَنْ له أهدافٌ سياسيةٌ هناك يجامل إسرائيل، أو يَسْكت عن جرائمها، ولا يتجشّم عناءَ السفر، وعلى حسابه، لكي يجيءَ فيتضامنَ مع الذين قُتلوا لأنّنا عجزنا (وعجزوا طبعًا) عن الوقوف في وجهِ مَنْ خَطَّط ثم نفّذ هذه المذبحةَ الجماعية.

بعدها تعوّدتُ أربعةَ لقاءات سنوية مع ستيفانو كياريني: اثنيْن يأتي فيهما وحده من أجل التحضير وترتيبِ المواعيد واللقاءات وبنود الاحتفالية، والثالث مع وفود المناضلين الآتين لإحياء الذكرى، والرابع بعد الذكرى السنوية لتقييم النتائج وتسجيل الملاحظات والهفوات لكي يكون الاحتفالُ في السنة التالية أعظمَ نجاحًا وأوسعَ تأثيرًا. ولقد شرّفني ستيفانو كياريني بتكليفي بتحضير المواعيد الرسمية. وهكذا كنتُ في أوائل شهر أيلول من كلّ عام أتّصل لأحجزَ مواعيدَ مع كلٍّ من رئيس الجمهورية، ورئيسِ المجلس النيابي، ورئيس الحكومة، إضافةً إلى الإعداد لمؤتمرٍ صحافي في نقابة الصحافيين.

ومن باب استذكار الإخلاص في تأدية الواجب يهمّني أن أنوّه إلى أنّ ستيفانو كياريني لم يَحْضرْ أيَّ عشاءٍ تكريميّ، في أيّ سنة، إلاّ متأخّرًا، وقبيْل انصراف المدعوّين، لأنّه يؤدّي واجبَه المهني لصحيفة **المانيفستو** أولاً، وبعد ذلك ينضمّ إلينا... ليشكرَنا ويودّعَنا.

وبطبيعة الحال، لم يكن ستيفانو كياريني وحيدًا في هذا الجهد، بل كان متقدّمًا بين أوائلَ لا يقلّون عنه إخلاصًا وإيمانًا بالإنسان وبحقوق الشعب الفلسطيني المضطهَدِ والمحروم من وطنه وما يساعده على حماية كرامته الإنسانية أيضًا. كانَ معه عددٌ من رفاقه المناضلين في صفوف الحزب الشيوعي الايطالي وبعض المنظمات التقدمية الأوروبية. وكيف ننسى الرفيقة مونيكا، الصلبةَ على رقّتها، والتي تتحدّث بعينيها أكثرَ ممّا تقول بلسانها، وتؤكّد لنا بابتسامتها المشعّة أنّ النضال لا يحتاج إلى العبوس والتجهّم... بل هو أحدُ مصادر الفرح بالحياة، وهو تقديرٌ لنعمة الحياة، وحمايةٌ لقيمتها، وبالتالي تكريمٌ لمن استحقّها.

❖ ❖ ❖

لن يأتيَ إلينا ستيفانو كياريني السنةَ. لكنّنا سنظلّ نَحْفظ موعدَ قدومه، وننتظره كما ينتظر الأطفالُ العيدَ. لقد علّمنا أن نحتفلَ بالشهداء وكأنّ ذكراهم هي العيدُ: هُمْ، مثلَه، لا يخْلفون موعدًا ولا يتأخّرون عمّن ينتظرهم.

لقد ساعَدَنا في حفظ شرف الشهادة من أجل القضية المحقّة والعادلة، من أجل حقّ الشعب الفلسطيني في حياةٍ فوق أرضه.

ولقد احتفل معنا مرارًا، وقد ملأه الزهوُ، بالانتصارات المجيدة التي كانت تحقّقها المقاومةُ في مواجهة الاحتلال الإسرائيلي للبنان. وحين أَجبرت المقاومةُ الاحتلالَ على الجلاء، شاركَنا ستيفانو كياريني الاحتفالَ بهذا النصر المؤزّر... فجال مع رفاقه المناضلين على كلّ المواقع التي واجه المقاومون فيها بدمائهم آلةَ الحرب الإسرائيلية وانتصروا. كذلك جاء إلينا، مباشرةً بعد وقف النار في أواخر شهر آب ٢٠٠٦، ليؤكّد أنّه ورفاقَه لن يبدّلوا من موقفهم، ولن يتراجعوا، ولن يخافوا من مناخ الحرب وممّا نثرتْه إسرائيلُ من أسباب الموت على امتداد أرض الجنوب (مئات ألوف القنابل العنقودية).

... ولقد صَدَق ستيفانو كياريني، فجاء مع رفاقه، وشَهِدوا لبطولة المقاومة، وشَهِدوا على جرائم الحرب الإسرائيلية ضدّ الإنسان وأسبابِ العمران في لبنان.

ستيفانو كياريني في الوجدان الآن. إنّه الشاهد والشهيد، مستقرُّه العقلُ والقلبُ، الفكرُ والكتابُ والصحيفةُ المبشّرةُ بغدٍ أفضلَ للإنسان في كلّ أرض، بدءًا بالمقدّسةِ فلسطين... وانتهاءً بها.

بيروت